مقدمة

إن النظرة الخارجية لإفريقيا توحى بأنها قارة غير قادرة على التطور، وأنها ازدادت فقراً وبؤسًا بعد الاستقلال، وأن الإفريقيين فشلوا فى العمل جنبًا إلى جنب، وأن الانقلابات والحروب الأهلية وحركات الانفصال التى تؤدى إلى التفتيت، وقتل الأبرياء بلا تمييز والفساد والوهن كل ذلك يجرى فى ظل التحرر، وأن الإفريقيين دائمًا ما يستغيثون فى طلب المساعدة من الخارج سواء كانت هذه المساعدة لمقاومة المجاعات أو الجفاف أو لانهيار الإنتاج الزراعى أو للحصول على أسلحة للتدمير يستخدمونها لقتل بعضهم بعضًا، أو لدعم ميزان المدفوعات أو لاستثمارات رأسمالية وتكنولوچية لتفادى الإفلاس والتدنى الاقتصادى.

إن الحقيقة التى ينكرها ويتناساها الجميع أن هذا الوهن الإفريقى لتحديات التغيير والبقاء والتطور التى توصم به إفريقيا له جذوره الضاربة عبر التاريخ، قرون متتالية خضعت فيها القارة لتجربتين قاسيتين من تجارب العبودية والاغتراب.

التجربة الأولى تعود إلى القرن الخامس عشر عندما حدث الاتصال بالغرب. فى البداية جاءوها مغامرين ومكتشفين ومبشرين، ثم تدفقوا تجاراً للرقيق، سرقوا واقتنصوا واقتادوا ملايين البشر من إفريقيا عبر الأطلنطى وقذفوا بهم إلى العالم الجديد فى أمريكا ليعمروه. قدر الزعيم الغانى الراحل كوامى نكروما عدد الشباب الذين فقدتهم إفريقيا خلال أربعة قرون بمائة مليون، وكانوا كلهم فتيانًا وفتيات فقط؛ لأن كبار السن لم يكن مرغوبًا فيهم لعدم مقدرتهم على العمل الشاق المهلك فى مزارع ومناجم الأمريكات[1]. وهذه المرحلة هى مرحلة العبودية الأولى من الرق البشرى والأسر المادى أفرغت فيها القارة من أبنائها.

(١) يقصد بالأمريكات أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية.

تلتها التجربة الثانية وهى لا تختلف فى مرارتها وآثارها المدمرة عن سابقتها، وهى مرحلة أو تجربة الأسر الثقافى «ربيكاتيف» حسب التعبير الذى أطلقه المؤرخ البريطانى الشهير «بازيل ديفيد سون» فى كتابه «عبء الرجل الأسود» ويقصد به الأفارقة المثقفين الذين تعلموا فى الخارج وعادوا إلى بلادهم أشد غربة عنها وعن شعوبها وأصبحوا عبيداً للثقافة والفكر الغربيين[1]. ويعرفهم «بازيل ديفيد سون» بأنهم إفريقيون تمامًا حسب أصلهم، ولكنهم انفصلوا عن إفريقيا بتجربة حادة من تجارب الاغتراب، وأسروا بالأفكار الغربية التى لا تصلح لواقعهم، وهؤلاء انبثق عنهم نمطان من الوطنيين: النمط الأول يتكون من الرؤساء والملوك الذين بقوا يؤمنون بالتقاليد الإفريقية وهم من أطيح بهم، والنمط الثانى يرون أنفسهم أنهم الوارثون الحقيقيون للحكام الاستعماريين وهم من فرضوا سيطرتهم على الحكم أمثال الرؤساء الأوائل د. باندا فى مالاوى وسنجور فى السنغال وهوفييه بوانييه فى كوت ديفوار (ساحل العاج) وحتى جومو كينياتا الذى كان كل ما يصبو إليه أن تمارس كينيا الحكم الذاتى فى الكومونولث شأنها شأن كندا ونيوزيلندا.

هؤلاء المتعلمون فى الغرب أنصار الحداثة كانوا يميلون أكثر لقبول الحلول الغربية للمشكلات الإفريقية، وتقبلوا المفاهيم الأوروبية للدولة القومية والسيادة، واعتقدوا أن هذه المفاهيم هى المناسبة للإفريقيين المعاصرين ليتعاملوا مع مشاكل العصر، وكانوا نافدى الصبر للتقاليد الإفريقية ولأى شىء يتعلق بالتقاليد القبلية، واعتقدوا أن مستقبل إفريقيا يجب أن يستند إلى النظريات الأوروبية وأن يستهدى بخبرات التاريخ الأوروبى، ونظروا إلى التقاليد باعتبارها عقبة فى تحرير إفريقيا، وكل ما كان ينشده هؤلاء بمناداتهم بالقومية أن يحلوا محل الحكام الاستعماريين ولكنهم ما أن يصلوا إلى السلطة ويجدوا أنفسهم وسياساتهم تواجه تحديًا من ممثلى تلك التقاليد وجموع الشعب العادى، ما أن يحدث ذلك حتى تجد هؤلاء أنصار الحداثة لا يترددون فى الهجوم

(١) مثل چاكوب كابيتين وهو طفل من غانا تم خضوعه للعبودية منذ طفولته حتى مماته (١٧١٧ ـ ١٧٤٧م) بيع فى وقت مبكر وهو فى الثامنة من عمره إلى بحار هولندى قدمه كهدية لراع فى لاهاى الذى أرسله إلى المدرسة اللاتينية، ثم التحق بجامعة ليدن كدارس للاهوت، وهناك تم تكييفه للثقافة الغربية، وقدم رسالته الجامعية حول مسألة تحرير الرقيق، جاءت دفاعًا عن العبودية وتجارة العبيد التى لا تتناقض مع المسيحية حسب قوله. **(كتاب إفريقى من القرن الثامن عشر تأليف كويس براه ترجمة ـ حلمى شعراوى وإسماعيل زقزوق ـ دار الأمين للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٧م)**.

والإدانة والاعتقالات وصاروا يقمعون غيرهم ويضطهدونهم مثل خلفائهم سادة الاستعمار، ويلجأون أيضًا إلى قاعدة فرق تسد.

إن الوهن الإفريقى الذى نشاهده اليوم هونتاج هاتين التجربتين القاسيتين من تجارب العبودية التى أعاقت التطور والإصلاح والتنمية فى إفريقيا.

وعلى الرغم من أن الغرب هو من ابتدع تجارة الرقيق عبر الأطلنطى وانتزع الأفارقة وشحنهم خارج قارتهم بلا عودة، وهى حقيقة مسجلة فى أدبياته وأرشيفاته، إلا أنه الآن يحاول أن يتنصل من أحط جريمة عرفتها البشرية ويلقى بمسئوليتها على الأفارقة، فهو يقول لولا مساعدة الإفريقيين شعوبًا وحكامًا ما استطعنا أن نأسر كل هذا العدد من أبناء إفريقيا ولولا أننا وجدنا البائع لما كنا أصبحنا مشترين. والرد البسيط أنه لولا وجود المشترين لماوجد البائع.

لا شك أن عددا من الإفريقيين تعاونوا مع تجار الرقيق الغربيين، ولكن يتعين اليوم أن نتفهم ظروفهم ودورهم وإلا سيخضعون لظلم شديد. إن الحقيقة التى يجب ألا تغيب أن كل ما كان يطلبه الأوروبيون فى أى مكان فى العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو الغش فإن لم ينجحوا بأى من هاتين الوسيلتين فبالقوة. فإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة نجد أن المجتمعات الأمريكية قامت أساسًا على استغلال العامل الإفريقى وأرض الهندى الأحمر وهو أمر لا يمكن نكرانه. اغتصب الأوروبيون الأرض وأزاحوا الأهالى وأحيانًا كانوا يسممون منابع المياه أو يعطونهم هدايا مسمومة، وكان الأهالى المحظوظون الذين لم يقتلوا يجمعون فى معسكرات معزولة. إن الأوروبيين عندما كانوا لا يجدون من يتعاون معهم فى استجلاب العبيد كانوا يلجؤون إلى إبادة الأهالى والامتلاك الكامل لأراضيهم كما حدث فى الأمريكتين مع الهنود الحمر وفى أستراليا ونيوزيلندا، وما فعله الألمان فى ناميبيا والبلچيك فى الكونغو.

لم يكن الزنوج الأفارقة مجرد عبيد ولا كان الهنود الحمر مجرد أفراد مطرودين من الأرض، وعلينا أن نقدر دور هذه الشعوب الصامتة التى أسدل عليها ستار النسيان لأنها أثرت فى مسيرة التقدم التاريخى لأمريكا، فلا الزنوج ولا الهنود مجرد شعوب بدائية يمكن أن نطحنهم تحت رحى التفوق الحضارى الأوروبى، حتى بنيامين فرانكلين أحد رؤساء أمريكا الأقدمين عجز عن ذلك منذ أكثر من مائتى سنة بقوله: «نحن

نسميهم متوحشين؛ لأن عاداتهم وأساليبهم فى الحياة تختلف عن عاداتنا وأساليبنا التى نعتقد أنها بلغت حد الكمال وهم يعتقدون الشىء نفسه لما لديهم».

إن تجارة العبيد الأفارقة التى بدأت فى القرن الخامس عشر واستمرت طوال الأربعمائة سنة التالية لهى واحدة من أندر الظواهر فى تاريخ العالم فهى تمثل أكبر هجرة إجبارية فى التاريخ، وفضلاً عن ذلك كان لتجارة العبيد، واسترقاقهم الأهمية الحاسمة فى بناء إمبراطوريات الدول الأوروبية الاستعمارية وإنتاج الثروات التى فجرت الثورة الصناعية فيما بعد.

***

من الدراسات الحديثة للتاريخ الإفريقى قبل الاتصال الأوروبى يتضح أن الفجوة الحضارية بين المجتمعات الأوروبية والإفريقية لم تكن كبيرة جدّا عند التقاء الشعبين، ففى الوقت الذى وصل فيه الأوروبيون إلى ساحل إفريقيا الغربية كان عدد من الإمبراطوريات العظيمة قد تكونت بالمنطقة مثل مملكة غانة القديمة التى ضمت الأرض الشاسعة بين الصحراء الكبرى وخليج غينيا، وما بين النيجر والمحيط الأطلنطى فيما بين القرنين السادس والعاشر، ونشأ خلال ذلك استقرار حضارى واسع ومعمار متقدم وفنون جميلة متقنة وتنظيم سياسى معقد، وكان السودان الغربى هو الذى أمد العالم الغربى بمعظم الذهب فيما بين القرنين الثامن والسادس عشر، وأضعفت غزوات البربر فى الشمال إمبراطورية غانة القديمة فأفسحت المجال حينذاك لإمبراطورية مالى التى كانت تتوسطها مدينة تمبكتو المشهورة بثرائها الواسع وجامعتها الإسلامية التى حوت هيئة تدريس ممتازة مثل غيرها من الجامعات الأوروبية. كما كانت هناك ممالك أخرى أصغر منها مثل مملكة الكونغو ومملكة بنين فى طريق النمو الحضارى قبل وصول الأوروبى لإفريقيا بمئات السنين، وقد مهر سكانها فى أعمال المعادن والنسيج والصناعات الخزفية وفن البناء والمشغولات الفنية الدقيقة، وضارع كثير من مدنها المدن الأوروبية فى حجمها، وكان لبعض مجتمعات غرب إفريقيا شعائر دينية وتجارة إقليمية جيدة التنظيم وقوانين تشريعية وأطر سياسية معقدة.

وكان النظام الداخلى للمجتمعات الإفريقية يقوم على العدالة ويعتمد على المساواة وليس العبودية. كانت العبودية تحدث فقط بفعل الحروب. وما تؤدى إليه من أسرى،

وكان نظام الأسر نظامًا مؤقتًا فما يلبث أسرى الحروب أن يستوعبوا فى الجماعات الداخلية التى انتقلوا إليها ويصبحوا أعضاء فيها خدمًا أو جنودًا أو مزارعين.

ففى المجتمعات الإفريقية التقليدية كان للفرد حقوقه المعترف بها والمقدسة لدى القبيلة، وكان زعيم القبيلة لايجرؤ على بيع أحد من أبناء قبيلته أو عشيرته، وإنما العبيد كانوا يأتون عن طريق واحد وهو الحروب، وأسرى الحروب هؤلاء كانوا يعتبرون أجانب فى المجتمع، ومن ثم لا يحوزون الحقوق التى يتمتع بها أعضاء المجتمع ويباعون لقبائل أو أفراد آخرين داخل القارة. كان ذلك قبل أن تعرف إفريقيا مرحلة العبودية عبر الأطلنطى.

وإن فشل الزعماء والمؤسسات الحاكمة فى حماية رعاياهم من الأسر ومع ضغوط التفكك والدمار كانت حتمية الفشل جاثمة، ولم يكن مطروحًا أمامهم قط فرص النجاح فى أن يبتعدوا عن التجارة الأوروبية، وفى الحالات التى كافح الحكام الأفارقة ضد هذا التيار القاسى وحاولوا بقدر أو بآخر إلغاء تصدير العبيد باءت هذه المحاولات بالفشل.

لقد مرت تجارة العبيد بنظم ثلاثة، العبودية بالقرصنة، العبودية بالتحالفات، والعبودية بالمشاركة، وفيها شارك الأفارقة الأوروبيون فى عمليات القرصنة، وصارت تجارة الرقيق عملاً يقوم به الحكام والسادة الأفارقة من أجل حصول الإفريقيين على البنادق والأسلحة النارية ليدافعوا بها عن أنفسهم فى حروبهم الداخلية.

فى البداية، كانت هناك أسس محددة ومعلومة لدى الطرفين، ومع الوقت ساءت العلاقات بين الإفريقيين والأوروبيين وصارت تعانى من الانهيار، وذوت العادات القديمة الخاصة بالمساواة والاحترام المتبادل وانحدر الإفريقيون فى عيون الأوروبيين إلى مصاف العبيد وجالبى العبيد، وصار الإفريقيون ينظرون إليهم باعتبارهم لا شىء إلا أنهم يراعون أرباحهم وأنهم لا يفعلون شيئًا إلا أن يحصلوا على المزايا ضد السود. وخلال الأعوام تعمقت القسوة والازدراء وأرسيت الأساطير عن إفريقيا المتوحشة وأهلها البرابرة أكلة لحوم البشر ليمهد الأوروبيون غزوهم واحتلالهم للأراضى الإفريقية ولسحقهم لشعوبها، وليؤكد الأوروبيون تميزهم الأخلاقى والمعنوى والمادى.

***

وبالنسبة للتجارة العربية للرق فقد كانت المبالغات التى جرت فى تقارير وكتب وأحاديث المستعمرين تضخم دور العرب والمسلمين فى هذه التجارة، وكان القصد من

ذلك التضخيم هو تبرير الغرب تدخلهم فى القارة باسم مكافحة تجارة الرقيق ومنعها وسعيهم للحصول على اتفاقيات بالتهديد أو بالإقناع للتدخل فى شئون هذه الدول ومراقبة الدول والأسواق وخطوط الملاحة البحرية مثلما يفعلون الآن فى القرن الحادى والعشرين فى دارفور والصومال وأفغانستان.

نعم مارس العرب هذه التجارة ولكن شاركهم فى هذه الممارسة الهنود فى الشرق الإفريقى واليهود فى الشمال الإفريقى والبربر فى شمال القارة وغربها والأوروبيين فى السواحل الإفريقية، فضلاً عن الإفريقيين أنفسهم على ما سبقت الإشارة.

ولكن نظام الرق الذى كان يمارسه العرب والشرقيون عامة والمسلمون على وجه الخصوص كان يختلف تمامًا عن نظام الرق الذى مارسه الأوروبيون سواء فى أوروبا أو فى الأمريكتين، وذلك بشهادة المؤرخين الأمناء الغربيين منهم.

وإذا كان كل من العرب والأوروبيين قد عملوا فى تجارة الرقيق فإن التساؤل هنا يكون فى كيفية معاملة واستغلال الرقيق وفى مسئولية نزوح تلك الأعداد الضخمة من مواطنها الأصلية.

إن الفرق بين الرق فى العالم العربى والرق فى العالم الغربى، أن الأوروبيين والأمريكيين اتخذوا من الرق نظامًا اقتصاديًا فى حين كان يشكل عند العرب نظامًا اجتماعيًا، وكان سوق الرقيق فى العالم العربى محدودًا وسهل التشبع إذا ما قورن بسوق الرقيق الغربى، كما أن التبادل التجارى بين العرب والإفريقيين لم يكن يجلب العبيد والنخاسين فقط، وإنما كان يجلب أيضًا الرخاء الاقتصادى والازدهار الحضارى الذى ظهر فى العديد من الممالك والمدن والسلطنات العربية والإفريقية على طول سواحل شرق إفريقيا، وكذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء نشوء العديد من الممالك والحواضر الإسلامية كتمبكتو ومالى وصنغى وكانم وبرنو وغيرها. وبينما كانت تجارة الرق العربية تقوم على جهود فردية فإن التجارة الأوروبية اعتمدت على الشركات والمراكز التجارية وبناء القواعد ا لعسكرية التى ضيقت الخناق على القارة.

ومن السمات المميزة الأخرى للرق أنه كان عند العرب يستغل أساسًا لخدمة المنازل والجيوش وأحد مظاهر البذخ، بيد أنه فى الأمريكتين كان له أساس اقتصادى وطيد،

وكان العبيد يجلبون للعمل فى المزارع التجارية ويستخدمون كقوى محركة وفى رفع الأثقال وجرها شأنهم فى ذلك شأن المواشى. لذلك فإن العبيد فى الشرق امتصوا فى السكان المحليين، كما كان اعتناقهم للإسلام يحررهم، فقد فتح الإسلام مجالات لتحرير الرقاب.

وهذا الكتاب يعد تكملة لكتابى السابق «العبودية فى إفريقيا» الذى كان عن معاملة العبيد الإفريقيين بعد امتلاكهم. وهذا الكتاب الثانى يكشف عن عمليات القنص والصيد للإفريقيين والاتجار بهم، وأنواع العمل التى كانوا يسخرون لها وحاولت فيه أن أناقش جريمة الرق الإفريقى وبواعثها وأطرافها وما أحدثته فى القارة من تدمير وخلل.

إن هذه الجريمة لا يزال يحيط بها الغموض والصمت وبالذات فى أدبيات المكتبة العربية، ولا أدرى السبب فى نقص الكتابات فى مجال تجارة الرق الإفريقى هل لنقص فى المادة المتاحة أم لحساسية الموضوع أم لعدم أهميته الآن، أم أنه تجاهل لإفريقيا وماضيها، مع أن ملف تجارة الرقيق كما يقول الباحث التشادى د. محمد آدم كلبو لا يزال حيّا ولم يطو صفحاته وربما سيكون من أولويات الدوائر الغربية فى السنوات القادمة لاستخدامه أجندة سياسية للضغط على بعض الدوائر العربية والإسلامية والتدخل فى شئونها وتحميلها مسئولية تجارة الرقيق فى إفريقيا بالرغم من تباين التجارتين الأوروبية والعربية.

إن إزالة آثار الاسترقاق من النفوس وتحرير العقل الإفريقى من عقدته وتداعياته لا يعنى محو تاريخ الرق من الذاكرة، فمن الحكمة أن يتبنى الأفارقة تاريخ الرق بكل فخر واعتزاز ويحيوا ذكرى ضحاياه ويخلدوا بطولاته فى المقاومة، ويبرزوا ضعف القيم الإنسانية والضمير الإنسانى فى عهد الاسترقاق.

لذلك فكل ما أرجوه أن يكون هذا الجهد المتواضع بداية لأعمال أخرى أكثر عمقًا وتفصيلاً، توقظ وتثير فى الضمائر المسئولية تجاه هذه القارة المظلومة.

***